الفصل الثاني: الأصول الثلاثة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الأصل الأول: معرفة العبد ربه، وأنواع العبادة:

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿**ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢]. وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ».

الشرح:

شرع المؤلف هنا في المقصود من هذا المتن، وهو «الأصول الثلاثة» أو «ثلاثة الأصول»، فبدأ بالأصل الأول.

والأصل هو: ما يُبنى عليه غيره[1]، كما يقال: أصل الجدار، يعني أساسُه وقاعدته التي يُبنى عليها بقيته.

---

(١) «التعريفات» ص ٢٨.

هذه الأصول الثلاثة تكمُن أهميتها - كما سبق - في أنها أسئلة القبر الثلاثة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ فهذه مسائل عظيمة جدا، وتشتد الحاجة الماسَّة إلى العلم واليقين بها والاعتقاد الصحيح في هذه المسألة؛ لأنه ما من ميت إلا ويُسأل هذه الأسئلة في الجملة، فأما المؤمن فيُوفَّق للجواب الصحيح، وأما الكافر أو الفاجر فيقول: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي[1]، فينالُه ما ينالُه من العذاب، نسأل الله العافية.

والكلام على الأصل الأول (معرفة العبد ربه)، في مسائل:

المسألة الأولى: المراد بهذا الأصل:

- قوله: «مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ»:

هذا من باب إضافة المصدر إلى فاعله، يعني أن يعرف العبدُ ربه، و«رَبَّهُ» مفعول المصدر.

والمراد بمعرفة الله - عز وجل -: الإقرار الجازم بالله - تعالى - رَبًّا ومعبودا بأسمائه الحسنى وصفاته العُلَى، فمعناها قريب من معنى الإيمان بالله، فعلى هذا تتضمن أربعةَ أشياء: الإيمان بوجود الله، والإيمان بربوبيته، والإيمان بألوهيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، هذا هو المقصود بمعرفة العبدِ رَبَّه.

---

(١) **ينظر**: سنن أبي داود (٤٧٥٣)، ومسند أحمد (١٨٥٣٤)، والحديث صححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦)، من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ورد هذا اللفظ في بعض النصوص كما جاء في حديث بَعْث معاذ إلى اليمن، أن النبي ﷺ قال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ** ...»[1].

وفي حديث ابن عباس المشهور قال ﷺ في وصيته: «**تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّة**»[2].

وذكر الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن معرفة العبد رَبَّه نوعان:

«**الأول**: المعرفة العامة: وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين، يعني كل مؤمن يُقِر بالله - عز وجل - ربا ومعبودا، ويُصدِّق بذلك.

الثاني: معرفة خاصة: تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: ما هو؟ قال: معرفة الله - عز وجل -»[3].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١١٢٤٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٩٦١)، وعند الترمذي (٢٥١٦) بدون هذه العبارة.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٧٣).

المسألة الثانية: لازم المعرفة:

يعني إذا عرف العبدُ رَبَّه، فما الذي يلزم من ذلك؟

الجواب: معرفة الله - عز وجل - تستلزم قبولَ ما جاء به النبي ﷺ، والامتثال فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، قال تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥]، فلازم المعرفة: قبولُ ما شرعه الله - عز وجل - على لسان رسوله ﷺ، والانقياد والإذعان لذلك.

المسألة الثالثة: معنى الرب:

- قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ»، وقال: «فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ».

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأظهر أنه مشتق من (ربَّه)، بمعنى: رَبَّاه وساسه، فكلمة الرب مشتقة من هذا الفعل: رَبَّه يَرُبُّه، بمعنى: رباه وساسه، فهي من التربية»[(١)].

ونحو ذلك قولُ الراغب: «الرَّبُّ في الأصل: التربية، وهي إنشاء الشيء حالا فحالا إلى حَدِّ التمام، يقال: رَبَّه ورَبَّاه ورَبَّبَهُ»[(٢)].

---

(١) «التحرير والتنوير» (١/ ١٦٦).

(٢) «المفردات» ص ٣٣٦.

وقيل: إن رب بمعنى مالك.

فيكون فيها معنيان: الأول أنه مشتق من ربَّى بمعنى رَبَّاه وساسه، والثاني أنه بمعنى مالك، فقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني: مالكهم.

وكلا المعنيين صحيح؛ فـ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يعني: أن الله - تعالى - مالكنا الذي أوجدنا وأمدنا وربانا بنعمه، والتي نتنقل فيها يوما بعد يوم؛ فضلا من الله ونعمة.

قال فرعون في حواره مع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٤٩- ٥٠].

ولعل من الأمثلة الجَلِية: الجنين في بطن أمه؛ كيف أن الله - عز وجل - يُرَبِّيه ويُنشِئُه شيئا فشيئا، ويُمِده بالغذاء وما يحتاجه حتى يأذن الله بخروجه، ثم يُمِده بنعمه بعد خروجه وهو طفل صغير، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، فنِعَم الله - عز وجل - جارية وسابغة على العباد، فهو ربهم الذي رباهم بنعمه.

فإذا كان الأمر كذلك وهذا فضل الله علينا، كان هو المعبود الذي لا يجوز أن يُعبَد غيره، كما سيُقرِّر المؤلف بعد ذلك بقوله: «وَالرَّبُّ هُوَ المَعْبُودُ».

○○○

ثم قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]».

الشرح:

﴿الْحَمْدُ﴾: «أل» هنا للاستغراق، يعني: استغراق جميع أنواع المحامد لله استحقاقا واختصاصا، فالحمد المطلق الكامل يستحقه الله ويختص به.

و«الحمد» لغة: ضِدُّ الذم، واصطلاحا - كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -: «الحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبِّه وإجلاله وتعظيمه»(١).

○○○

ثم بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى العالَمِ، فقال:

«وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ».

الشرح:

المسألة الرابعة: المراد بالعالمين:

«العالَم»: تجمع على العالَمِين، ولم يُجمع «فَاعَل» هذا الجمع إلا في لفظين، كما ذكر ذلك ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عالم وياسَم - اسم للزَّهر المعروف بالياسمين -، جمعوه على ياسَمون وياسمين. والعالَم: الجنس من أجناس الموجودات، وبَنَتْه

(١) «بدائع الفوائد» (٢/ ٩٣).

العرب على وزن (فَاعَل) بفتح العين، مشتق من العِلم أو من العلامة»[1]، كأن كل صنف من هذه المخلوقات علامة على خالقها.

وجاء في هذه الكلمة أثرٌ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: «له الخَلق كله، السموات كلهن ومن فيهن، والأرضون كلهن ومن فيهن وما بينهن، مما يُعلم ومما لا يُعلم. يقول: اعلم - يا محمد - أن ربك هذا لا يشبهه شيء»[2].

وأخرج ابن جرير الطبري في تفسيره أيضا عن قتادة في قوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: «كُلُّ صِنْفٍ عَالَمٌ»[3].

فكل جنس من أجناس المخلوقات عالَم، فعالم الطير وعالم الأسماك وعالم الزواحف وهكذا، لا يعلمها إلا خالقها.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤]؛ فهذا كأنه تفسير لـ﴿الْعَالَمِينَ﴾.

○○○

(١) «التحرير والتنوير» (١/١٦٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٤٣)، وضعَّف إسناده العلامة أحمد شاكر.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٤٦)، وقال صاحب «الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور» (١/٨١): «إسناده حسن».

ثم أفاضَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما تحصُل به المعرفة، فقال:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءِ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

الشرح:

المسألة الخامسة: بم تحصل هذه المعرفة؟

- ذكر الشيخ هنا الطريق إلى حصول هذه المعرفة، فقال: «بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ»:

والآيات: جمع آية وهي العلامة، وآيات الله نوعان:

الأول: آيات كونية: وهي مخلوقاته؛ كالشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والبحار، وما إلى ذلك.

الثاني: آيات شرعية: وهي الآيات المتلوة (القرآن).

فهنا عطَف المخلوقات على الآيات؛ فإذا فسرنا الآيات بأنها الآيات الكونية والشرعية فهنا العطف يكون من باب عطف الخاص على العام، وهذا هو الظاهر؛ لأنه قال: «وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ»، فهذا يدل على أنه يريد بالآيات: الآيات الكونية والشرعية، والآيات الشرعية كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩].

فتحصُل معرفة الله - عز وجل - بالنظر والتأمل والتفكر في الآيات الكونية، والتدبر في الآيات الشرعية، فكُلَّما أكثر الإنسان من التفكُّر في مخلوقات الله وآياته، وقلَّب النظر في بديع صُنعه وإتقان خَلقه؛ أورث له ذلك زيادة في إيمانه وقويت معرفته بربه.

وكذلك التدبر، فكلما تدبر الإنسان في كتاب الله وتأمل، وألقى السمع وهو شهيد، وأحضر القلب؛ أورث له ذلك أيضا زيادة في إيمانه وقوة في معرفته بربه.

وذكر الشيخ أمثلة على الآيات والمخلوقات «اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ»، و «السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا»، وذكر بعض الأدلة على ذلك التي تدل على هذه الآيات وعظيم خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذلك.

وفي الآيات التي ساقها: قولُه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالخلق له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما سبق تقرير ذلك، وكذلك الأمر؛ الأمر الكوني والأمر الشرعي، كله بيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والأمر الكوني: هو القضاء والقدر؛ فالجميع سائرون تحت أمر الله، خاضعون لتدبيره – تعالى – فيهم، لا يملك أحد أن يخرج عن أمره – سبحانه –.

وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأمر الشرعي؛ فمن امتثله فهذا هو المؤمن المُصدِّق، ومَن جحده أو أعرض عنه فهذا هو الكافر أو العاصي.

ووجه دلالة هذه المخلوقات على معرفة الله – تعالى –: إتقان الصنعة وإبداع الخَلق.

فالنظر في إتقان الصنعة وإبداع الخلق لتلك المخلوقات يدل على أن لها خالقا، فلا يمكن أن توجِد نفسَها بنفسها، ولا يمكن أن توجَد بدون موجِد

هكذا صدفة، فكان لابد من نظر وتأمل وتفكر في هذه المخلوقات العجيبة البديعة وما فيها من إحسان الصنعة وإتقان الخلق، وهذا النظر يورث قوة إيمان ومعرفة بأن لها خالقا، وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كما سبق في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وذكروا في هذا قصة للإمام أبي حنيفة لما أراد أن يُناظِر قومًا من الملاحدة من طائفة يُقال لها السمنية، فتأخر عنهم، فلما جاءهم أخبرهم أنه رأى عجبا؛ رأى الأخشاب والمسامير تطير في الهواء، ثم اجتمعت وكوَّنَت سفينة، ثم جرت هذه السفينة على أحسن نظام تمخَرُ عُباب النهر، وليس فيها أحد يقودها. فتعجبوا من هذا، وقالوا: هذا جنون. فقال: سبحان الله، كيف تُنكِرون هذه السفينة وأنتم تنكرون هذا الخَلق العظيم، تجحدون أن له خالقا مدبرا صانعا ؟!(١).

ويوصَى في هذا الباب بكتاب «مفتاح دار السعادة» للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فإنه تكلم على أسرار المخلوقات، وبديع خلق الله – جل وعلا –.

○○○

- وقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ»:

يعني: أن الرَّبَّ الذي تقرر معناه ودليله فيما سبق؛ هو الذي يستحق العبادة وليس غيره، ولهذا يقولون: توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فمن أقر

(١) سبق تخريجها.

بالله رَبًّا خالقا مالكا مُدَبِّرا، لزم من ذلك أن يوحده ويُفرده في العبادة. هذا معنى قوله: «وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ».

ولهذا قال: «وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ...﴾[البقرة: ٢١]»، ففيه إشارة إلى أنه لمَّا أقررتم أنه الرب، وهو ربكم، فكان هو المستحِقَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للعبادة، ولهذا قال: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، فهم إن سألتهم: من خلقهم؟ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، لكن مع ذلك أشركوا بالله غيره، فالله – عز وجل – قرَّرَهم على توحيد العبادة بإقرارهم بتوحيد الربوبية، بأفعال الله: الخلق والرزق ونحو ذلك.

وهذه الآية أول أمر في القرآن، مَن يقرأ القرآن مِن أوَّلِه فأولُ أَمْرٍ يأتيه في كتاب الله هو هذا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ ممهدة، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ سقفًا محفوظًا، ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، فمن كانت هذه صفتَه فلا يليق أن يكون له نِدٌّ وشريك ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، إنه لا ندَّ له يستحق العبادة ولا نظير له، وإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بيده الخلق ويُدبر الأمور؛ فهو الرازق المالك المتصرف، فلا يصح أن يُجعل له شريك في العبادة.

ونقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاء هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ». وهذه العبارة ذكرها الشيخ بالمعنى، وإلا فكلام الحافظ ابن

كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية قال: «ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقُهم، فبهذا يستحق أن يُعبَد وحده ولا يُشرَك به غيره، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]»[1]، والله أعلم.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر أمثلة وأنواع للعبادة، فقال:

«وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ - تَعَالَى -، وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]».

الشرح:

انتقل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنواع العبادة، والعبادة معناها التذلل، فيقال: طريق مُعبَّد، أي مُذَلَّل، ذللته الأقدام.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٤).

وفي الاصطلاح: تُطلَق العبادة على الفعل وعلى المفعول.

فتُطلَق على التعبُّد الذي هو فعل الإنسان، فتُعرَّف - حينئذ - بأنها: التذلل والخضوع لله - تعالى -، مع المحبة والتعظيم.

وتُطلق على المفعول (كالصلاة، مثلا)، فتُعرَّف - حينئذ - بما عرَّفها به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»(١).

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أصول العبادات ترجع إلى هذه الأشياء الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان، وهذه الثلاثة هي الدين الإسلامي الذي بعث الله نبيه محمدا ﷺ به، وسيأتي تفسيرها - إن شاء الله - في الأصل الثاني (معرفة دين الإسلام).

- ثم قال: «وَمِنْهُ»: يعني مما أمر الله به من العبادة «الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ»، إلى آخره.

ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أربعة عشر نوعا من أنواع العبادات مقرونة بأدلتها، وهذه العبادات حين التأمل نجد أنها متنوعة إلى ثلاثة أنواع:

الأول: عبادات قلبية؛ كالخوف، والرجاء، والتوكل، والخشية.

الثاني: عبادات قولية؛ كالدعاء، والاستعانة، والاستعاذة.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩).

الثالث: عبادات فعلية؛ كالذبح.

وينبغي حين ندرس هذه العبادات أن نعتني بثلاثة أمور:

أولا: معرفة معنى العبادة.

ثانيا: معرفة الدليل على كونها عبادة.

ثالثا: معرفة وجه الدلالة من ذلك الدليل.

- وقوله: «وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ - تَعَالَى -»: يعني أن ما ذكره على سبيل المثال لا الحصر؛ فليست هذه كلَّ العبادات، وإنما بعض العبادات.

- ثم ذكر دليلين على وجوب إفراد الله بالعبادة، وكُفر من دعا معه غيره، فقال: «وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]»، والمساجد في الآية: يراد بها أماكن السجود أو أعضاء السجود، وكلّها لله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ. والدعاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: يشمل دعاء العبادة، ودعاء المسألة، كما سبق الكلام عن هذه الآية.

والدليل الثاني: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]»: و﴿إِلَٰهًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا﴾ نكرة في سياق الشرط فتُفيد العموم، لكن قوله: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾، هذه - كما يقول العلماء -:

صفة كاشفة، يعني لبيان حقيقة الأمر: أن كل من يدعو مع الله إلها آخر فليس له برهان، ليس له حجة ولا دليل. ولا يُفهم أن هناك من يدعو مع الله إلها آخر وله برهان عليه! كلا؛ بل هذه صفة كاشفة لبيان الحال، وليست قيدا، فالعبارة هنا ليس لها مفهوم.

- وقوله: «فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ»: الكفر أعم مِن الشرك؛ فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركا؛ فالملحد – مثلا – كافر وليس بمشرك.

وأمثلة العبادات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ فيها بالدُّعاء، وهو عبادة من أعظم العبادات، ويتعلق به ثلاث عبادات أخرى ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ متصلة بالدعاء؛ وهي: الاستعانة والاستعاذة والاستغاثة. كل هذه الثلاث لها تعلق بالعبادة الأولى (الدعاء)، فنشرع في الكلام على الدعاء، وهذا في مسائل:

المسألة الأولى: معنى الدعاء:

يُطلق الدعاء على المصدر، ويُطلق على المفعول، كما سبق في العبادة.

فيُطلق على المصدر الذي هو التكلم؛ فالإنسان حينما يسأل الله، فتكَلُّمه هذا دعاء. فإذا قال الإنسان – مثلا –: «اللّٰهم اغفر لي»، فتكَلُّمه هذا دعاء.

ويُطلق – أيضا – على المفعول الذي هو الألفاظ، فإذا قال الإنسان – مثلا –: «اللّٰهم اغفر لي»، فهذه الحروف الملفوظة دعاء.

وعُرِّف الدعاء في الاصطلاح بتعاريف مُتقاربة المعنى؛ ومما يقال في تعريفه: التوجه إلى الله – تعالى – وسؤاله تحقيق مطلوب أو دفع مكروه، أو التذلل له بالطاعة. وهذا التعريف يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

المسألة الثانية: أقسام الدعاء:

الدعاء قسمان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة.

أولا: دعاء المسألة: وهو طلب ما ينفع؛ من تحصيل مطلوب أو دفع مكروه.

ثانيا: دعاء العبادة: ويراد به التعبُّد، يعني العبادات عموما، مهما كان جنسها أو نوعها، فكل عبادة فهي دعاء عبادة.

المسألة الثالثة: العلاقة بين دعاء المسألة ودعاء العبادة:

هناك ارتباط وثيق بينهما، فدعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة؛ لأنه حينما يتوجه المسلم إلى ربِّه ويسأله حاجاته فهو الآن في عبادة، فهذا السؤال وهذا الطلب عبادة.

وأما دعاء العبادة فهو يستلزم دعاء المسألة، يعني: يدل عليه بدلالة الالتزام وكذا بدلالة التضمن – أيضا –.

حينما يفعل المسلم عبادة لله – عز وجل–، يُصلي، أو يصوم، أو يجاهد في سبيل الله، فإن هذا التعبد وهذه العبادات في حقيقتها سؤال بلسان الحال، وإن

لم يتكلم؛ لكن بلسان الحال، هذه العبادات تتضمن وتستلزم دعاء المسألة، كيف ذلك؟

لأن هذا العابد لو سألته لماذا تفعل ذلك؟ لقال: أطلب ما عند الله، أريد ثوابه وجنته، والسلامة من عقابه وناره. إذن، هذه العبادة تضمنت واستلزمت دعاء المسألة، فكل عابد لله - بأي نوع من العبادة - فهو في حقيقة الأمر يسأل الله بلسان حاله أن يثيبه ويجزيه الجزاء الحسن على هذه العبادة، وأن يحفظه ويصرف عنه الشر والعذاب بالنار يوم القيامة، أو العذاب في القبر.

فرع: أمثلة على قسمي الدعاء:

من أمثلة دعاء المسألة:

قوله تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ**﴾ [النمل: ٦٢]، فهنا دعاء مضطر وفيه سؤال وطلب.

ومن أمثلته قوله - عز وجل - أيضا: ﴿**وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ**﴾ [يونس: ١٢]، وهنا سؤال وطلب.

ومن أمثلة دعاء العبادة: قوله - عز وجل -: ﴿**قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ...**﴾ [الأنعام: ٥٦]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ**﴾ [العنكبوت: ٤٢].

المسألة الرابعة: الأدلة على هذه العبادة:

ذكر الشيخ دليلين: حديثا وآية.

- قال: «وَفِي الْحَدِيثِ: «**الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ**»[1]»: وهذا الحديث أخرجه الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي سنده ضعف. والصحيح اللفظ الآخر من حديث عمران رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»[2]، فهذا نص صريح بأن الدعاء عبادة، بل كأنه حصر العبادة في الدعاء.

والدليل الآخر قوله - عز وجل -: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ...﴾ [غافر: ٦٠]، فعبَّر عن الدعاء بالعبادة مما يدل على أن الدعاء عبادة.

المسألة الخامسة: حكم دعاء غير الله:

الدعاء عبادة، والعبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

وتأصيلا للمسألة يقال: إن الدعاء ينقسم إلى قسمين:

---

(١) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، و الطبراني في «الدعاء» (٨)، وقال الترمذي: «حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة»، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٠٠٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٤٠٧)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الأول: دعاء مشروع:

وهو دعاء الله – عز وجل – سواء كان دعاء مسألة أو دعاء عبادة، وهذا القسم قد يكون واجبا وقد يكون مستحبا.

الثاني: دعاء غير مشروع:

وهو أنواع متفاوتة؛ فمنه: الدعاء الشركي، والدعاء البدعي، والدعاء المحرم، والدعاء المكروه. والخوض في تفصيلات هذه الأنواع يطول، ولا يحتمله شرح هذا المختصر.

متى يجوز دعاء المخلوق؟

إذا كان الدعاء لحيٍّ حاضر قادر، فهذا ضابط الجواز.

فلا يُدعى الأموات، ولا يُدعى الأحياء الغائبون، ولا يُدعى الأحياء الحاضرون غير القادرين، كما لو سألتَ إنسانا عندك أن يشفي المريض، أو أن يُنزل الغيث، أو أن يهب الولد، فهذا خارج عن قدرته؛ فلا يجوز.

ولو قال قائل لآخر: أسألك أن تحمل هذا المتاع إلى بيتي، فهذا سؤال لحي حاضر قادر، فليس محرما.

المسألة السادسة: العلاقة بين الدعاء والعبادة:

العلاقة بين الدعاء والعبادة بحسب قسمي الدعاء، فإن كان الدعاء دعاء العبادة؛ فالعلاقة بينهما هنا علاقة ترادف؛ لأن دعاء العبادة هو العبادة.

وأما إن أريد بالدعاء دعاء المسألة؛ فالعلاقة بينهما علاقة عمومٍ وخصوصٍ مطلق، فالعبادة أعم مطلقا، بمعنى: كل دعاء فهو عبادة، وليس كل عبادة دعاء.

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى دليل نوع آخر من أنواع العبادة، فقال:

«وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]».

الشرح:

هذه العبادة الثانية، وهي الخوف، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى الخوف:

قال الراغب: «الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة. ويُضاد الخوف الأمن، ويُستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية»(١).

المسألة الثانية: دليل كون الخوف عبادة:

الدليل على أنه عبادة قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فقد أمر الله عباده أن يخافوه، وهذا يدل على أنه يُحِب هذا الأمر، ومحبة الله له تدل على أنه عبادة من العبادات.

(١) «المفردات» ص٣٠٣.

المسألة الثالثة: أقسام الخوف:

يمكن أن يُقسَّم الخوف إلى خمسة أقسام؛ باعتبار الأحكام التكليفية:

القسم الأول: خوف واجب، وهو الخوف من الله - تعالى - الذي يحمل على فعل الواجب وترك المحرم.

القسم الثاني: خوف مستحب، وهو الخوف من الله - تعالى - الذي يحمل على فعل المندوب وترك المكروه.

القسم الثالث: خوف مباح، وهو الخوف الطبيعي؛ كخوف الإنسان من الأسد، وخوفه من النار، ونحو ذلك؛ قال الله عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿**فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ**﴾ [القصص: ١٨].

القسم الرابع: خوف مكروه، وهو الخوف الذي يؤدي إلى فعل مكروه أو ترك مندوب.

القسم الخامس: خوف محرم، وهذا له صور قد تصل إلى الشرك؛ كأن يخاف من المخلوق في أمر لا يقدر عليه إلا الله، أو أن يتعبد لهذا المخلوق بالخوف منه، فهذه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

ومنه ما يُسمى «خوفُ السر»، وهو أن يخاف من إنسان بعيد أو ميت أن يؤثر فيه وأن يتصرف فيه؛ فهذا لا يحصل إلا عن اعتقاد أن لهذا المخوف تصرفا وقدرة في الكون، وهذا يقع من عُبَّاد الأوثان والمتعلقين بالأضرحة ونحوهم.

○○○

ثم شرع الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر دليل الرجاء، فقال:

«وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]».

الشرح:

هذه العبادة الثالثة: الرجاء، والكلام عليها في مسائل:

المسألة الأولى: معنى الرجاء:

قال الراغب: «الرجاء: ظن يقتضي حصول ما فيه مسَرَّة»(١).

وقال الجرجاني: «الرجاء: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل»(٢).

المسألة الثانية: دليل الرجاء:

- قال: «قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]».

قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: يشمل كونَه يأمل ثواب الله، ورؤية وجهه الكريم يوم القيامة، وأيضا ﴿يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾: أنه يخشى عقابه، فمن كان راجيا يوم يلقى ربه الثواب على عمله والسلامة من كل شر، إن كان يرجو هذا ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

---

(١) «المفردات» ص ٣٤٦.

(٢) «التعريفات» ص ١٠٩.

- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ﴾: ذكر أهل العلم أن اللقاء يوم القيامة نوعان:

الأول: لقاء خاص: وهذا للمؤمنين، والمراد به لقاء الرضا والنعيم والثواب، ومنه هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ﴾، يعني: لقاء نعيم وثواب وإكرام.

الثاني: لقاء عام: وهذا يشمل الناس جميعا، ودل عليه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، على القول بأن الضمير في ﴿فَمُلَـٰقِيهِ﴾ يعود إلى الرب، وذكر بعدها أحوال الناس ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧]، ثم قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠].

المسألة الثالثة: أنواع الرجاء:

النوع الأول: الرجاء المحمود: وهو الرجاء مع العمل، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ﴾، فهو يعمل بالطاعة ويجتهد في العبادة، وإذا حصلت منه هفوة أو ذنب سارع بالتوبة والندم، فهذا يرجو المغفرة، يرجو العفو، يرجو ما عند الله، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

النوع الثاني: الرجاء المذموم: وهو رجاء من فرَّط في أمره وركب الذنوب، فهو يرجو رحمة الله بلا استعداد ولا عمل، وهذا في الحقيقة غرور وأماني كاذبة.

ترجو النجاة ولم تسلكْ مسالكَها إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ[1]

وهذا مِن الفَرق بين الرجاء والتمني: الرجاء يكون معه عمل، والتمني يكون مع الكسل، قال الله – تعالى –: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

○○○

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى دليل التوكل، فقال:

«ودَلِيلُ التَّوَكُلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]».

الشرح:

هذه العبادة الرابعة: التوكل، وفيها مسائل:

المسألة الأولى: معنى التوكل:

التوكل لغة: هو الاعتماد[2].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٧٣/ ٣٠٤)، والبيت ينسب لأبي العتاهية.

(٢) ينظر: «مقاييس اللغة» (٦/ ١٣٦)، مادة «وكل».

واصطلاحا: هو الاعتماد على الله - تعالى - في جلب المنافع ودفع المضار، مع بذل الأسباب[1].

المسألة الثانية: دليل التوكل:

ذكر الشيخ آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فهذا أمرٌ بالتوكل على الله وحده؛ لأن تقديم ما حقه التأخير - وهو الجار والمجرور هنا - يقتضي الحصر، يعني: توكلوا على الله وحده دون ما سواه.

والثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، يعني كافيه، فإذا كان الله - عز وجل - يتولى من يتوكل عليه بالكفاية، ويكفيه أمره، فهذا يدل على محبته لهذا العمل، ومحبته للشيء تدل على أنه عبادة؛ فالتوكل عبادة قلبية من العبادات العظيمة.

المسألة الثالثة: أنواع التوكل:

التوكل نوعان:

النوع الأول: توكل على الله. وهذا له صورتان:

الأولى: أن يتوكل العبدُ على الله في تحصيل حظِّه من الرزق والعافية والمصالح الدنيوية.

---

(١) ينظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١١٨)، «جامع العلوم» (٢/٤٩٧).

الثانية: أن يتوكل العبدُ على الله في تحصيل مرضاته وعبادته، ونحو ذلك.

ففي الصورة الأولى التوكل في حصول المطلوب عبادة، وإن كانت الغاية ليست عبادة، لكن الوصول إليها تضَمَّن عبادة؛ حيث إن العبد اعتمد على الله ربِّه وخالقه ومالكه في تحصيل هذا الأمر الدنيوي.

وأما الصورة الثانية فالمطلوب عبادة في نفسه، والوسيلة إليه عبادة – أيضا –؛ لأنه يتوكل على الله في تحصيل ما يُرضيه وما يُقربه لديه من عبادات، ونحو ذلك.

النوع الثاني: التوكل على غير الله. وهذا له صورتان – أيضا –:

الأولى: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا شرك أكبر.

الثانية: أن يتوكل على حيٍّ حاضر قادر؛ بحيث يعتمد ويتعلق قلبُه بهذا المخلوق؛ سواء كان أميرا أو وزيرا أو مديرا أو نحو ذلك، في تحصيل ذلك الأمر المرغوب، أو في دفع الأمر المرهوب، فهذا نوع من الشرك الأصغر.

أما لو كان نظره أنه سبب، وأن الله – عز وجل – قدَّر هذا الشيء على يده، فهو سبب من الأسباب، وله دور في حصول هذا الشيء، فهذا لا بأس به كسائر الأسباب المؤثرة التي أجرى اللهُ وقدر وقضى أن تكون أسبابا في حصول آثارها ومقتضياتها.

المسألة الرابعة: الفرق بين التوكل والتوكيل:

سبق بيان معنى التوكل، وأما التوكيل: فهو أن يُنيب الإنسان غيره في أمرٍ تجوز فيه النيابة، كما لو وكَّلت رجلا في شراء سيارة.

فهذا لا بأس به، وهو الوكالة التي يذكرها الفقهاء في أبواب المعاملات، ودل عليها الكتاب والسُنة والإجماع.

نهاية الدرس

ثم انتقل الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى التدليل على أنواع أخرى من العبادات، فقال:

«وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]».

الشرح:

هذه ثلاث عبادات ساقها الشيخ بدليل واحد، وهي العبادة الخامسة والسادسة والسابعة: الرغبة والرهبة والخشوع. والكلام عليها في مسائل:

المسألة الأولى: في بيان معناها:

أولا: الرغبة:

قال الراغب: «والرَّغْبَةُ والرَّغَبُ والرَّغْبَى: السعة في الإرادة»[1].

(١) «المفردات» ص ٣٥٨.